STARTER STORY · ARABIC · C1

ضَوْءٌ قَديمٌ

oqou

ضَوْءٌ قَديمٌ

كانَ الأُستاذُ نُعمانُ يَحرُسُ مِرصَدَ قَريةِ دَيرِ القَمَرِ مُنذُ إحدى عَشْرةَ سَنة، وهُوَ مِرصَدٌ صَغيرٌ بَناهُ شَيخُهُ وأُستاذُهُ الأَوَّلُ، الشَّيخُ فارِس، فَوقَ رَبوةٍ تُطِلُّ على الوادي. كانَتِ الغُيومُ في تِلكَ الجِبالِ تَحجُبُ السَّماءَ مُعظَمَ لَيالي السَّنة، ولِذلِكَ كانَ نُعمانُ يَعُدُّ اللَّيالِيَ الصّافِيةَ كَما يَعُدُّ البَخيلُ عُملاتِه.

في ذلِكَ الشَّهر، وَصَلَتْهُ رِسالةٌ مِن جَمعِيّةٍ فَلَكِيّةٍ في العاصِمة تُخبِرُهُ أنَّ مُذَنَّباً نادِراً، لا يَمُرُّ قُربَ الأَرضِ إلّا مَرّةً كُلَّ سَبعينَ سَنة، سَيَكونُ في أوضَحِ ظُهورٍ لَهُ لَيلةَ الخَميس، ولَن يَظهَرَ بَعدَها لِأَحَدٍ مِن أهلِ هذا الجِيل. طَلَبَتِ الجَمعِيّةُ مِنهُ أن يُسَجِّلَ إحداثِيّاتِهِ بِدِقّة، لِيَنضَمَّ رَصدُهُ إلى سِجِلٍّ عالَمِيٍّ يَحمِلُ اسمَهُ إلى جانِبِ اسمِ المُذَنَّب.

لَم يَكُن يَكفي أن يَكونَ المُذَنَّبُ حاضِراً؛ كانَ لا بُدَّ أيضاً مِن سَماءٍ صافِيةٍ تَماماً، بِلا غَيمةٍ واحِدة، ولا قَمَرٍ يَغسِلُ ضَوءَهُ الخافِت. حينَ نَظَرَ نُعمانُ إلى نَشرةِ الطَّقسِ مَساءَ الأَربِعاء، ورَأى سَماءً صافِيةً تَماماً مُتَوَقَّعةً لِلَيلةِ الخَميس، شَعَرَ بِأَنَّ إحدى عَشْرةَ سَنةً مِن الانتِظارِ كانَتْ تَتَقاطَرُ أخيراً في مَوعِدٍ واحِد.

كانَ الشَّيخُ فارِسُ، باني المِرصَد، قَد جاوَزَ التِّسعينَ مِن عُمرِه، وأقعَدَهُ المَرَضُ في بَيتِهِ القَريبِ مُنذُ الرَّبيع. كانَ نُعمانُ يَزورُهُ كُلَّ يَومٍ تَقريباً، يُخبِرُهُ بِأخبارِ السَّماءِ كَما يُخبِرُ الابنُ أباهُ بِأخبارِ السّوق. حَفيدَتُهُ سَلمى، فَتاةٌ في الثّالِثةَ عَشْرةَ، كانَتْ تَقضي أُمسِياتِها في المِرصَدِ تَتَعَلَّمُ مِن نُعمانَ أسماءَ النُّجومِ ومَداراتِ الكَواكِب.

مَساءَ الأَربِعاء، جاءَتْ سَلمى إلى المِرصَدِ باكِيةَ العَينَين. قالَت: «جَدّي يَقولُ إنَّ نَفَسَهُ يَضيقُ أكثَرَ كُلَّ يَوم، والطَّبيبُ هَمَسَ لِأُمّي بِكَلامٍ لَم يُرِدْ أن أسمَعَه. جَدّي يَطلُبُ أن تَأتِيَ إلَيهِ لَيلةَ الخَميس، فَهُوَ يُريدُ أن يَسمَعَ صَوتَكَ وأنتَ تَصِفُ لَهُ السَّماء.»

شَعَرَ نُعمانُ بِالأرضِ تَميلُ تَحتَ قَدَمَيه. لَيلةُ الخَميسِ نَفسُها، اللَّيلةُ الَّتي انتَظَرَها إحدى عَشْرةَ سَنة، هِيَ اللَّيلةُ الَّتي يَطلُبُهُ فيها الرَّجُلُ الَّذي عَلَّمَهُ كُلَّ ما يَعرِفُهُ عَن السَّماء. لَم يَستَطِعْ أن يَقولَ لِسَلمى إنَّهُ سَيَختارُ المِرصَدَ على جَدِّها، فَاكتَفى بِأن قالَ: «سَأُفَكِّرُ في الأمرِ يا صَغيرَتي.»

طَوالَ تِلكَ اللَّيلة، لَم يَنَمْ نُعمانُ جَيِّداً. كانَ يُفَكِّرُ في التِّلميذِ الَّذي أصبَحَ أُستاذاً، وفي اسمِهِ الَّذي سَيَظهَرُ إلى جانِبِ اسمِ مُذَنَّبٍ لَن يَعودَ إلّا بَعدَ سَبعينَ سَنةً أُخرى، حينَ لَن يَكونَ هُوَ نَفسُهُ على قَيدِ الحَياة. وكانَ يُفَكِّرُ، في الوَقتِ نَفسِه، في يَدِ الشَّيخِ فارِسٍ الَّتي وَضَعَت يَدَهُ الصَّغيرةَ، قَبلَ عِشرينَ سَنة، على أوَّلِ عَدَسةٍ لَمَسَها في حَياتِه.

جاءَ نَهارُ الخَميس، وبَدَأَ نُعمانُ يُجَهِّزُ التِّلسكوبَ الكَبيرَ في المِرصَد، يُنَظِّفُ العَدَساتِ ويُراجِعُ حِساباتِ الإحداثِيّات. وَصَلَ أيضاً باحِثانِ شابّانِ مِن الجامِعةِ، أرسَلَتهُما الجَمعِيّةُ الفَلَكِيّةُ لِيُساعِداهُ في تَوثيقِ الرَّصد، ويَحمِلانِ كامِيرا حَديثةً لَم يَرَ نُعمانُ مِثلَها مِن قَبل. شَعَرَ لِأَوَّلِ مَرّةٍ بِأنَّ ما كانَ عَمَلاً شَخصِيّاً صارَ حَدَثاً يَنتَظِرُهُ آخَرون.

ومَعَ غُروبِ الشَّمس، صَفَتِ السَّماءُ تَماماً كَما وَعَدَتِ النَّشرة، بِلا غَيمةٍ واحِدة، والنُّجومُ تَتَكاثَرُ كُلَّما ازدادَ الظَّلامُ عُمقاً. أشعَلَ الباحِثانِ أجهِزَتَهُما، وضَبَطا الكامِيرا على مَوعِدِ ظُهورِ المُذَنَّب. عِندَ التّاسِعة، عادَتْ سَلمى، أكثَرَ شُحوباً هذِهِ المَرّة، وقالَتْ بِصَوتٍ خافِت: «جَدّي يَسأَلُ عَنكَ كُلَّ رُبعِ ساعة.»

نَظَرَ نُعمانُ إلى التِّلسكوبِ، ثُمَّ إلى سَلمى، ثُمَّ إلى السَّماءِ الصّافِيةِ الَّتي انتَظَرَها نِصفَ عُمرِه. لَم يَقُلْ شَيئاً كَثيراً. سَلَّمَ الباحِثَينِ دَفتَرَ الإحداثِيّات، وقالَ لَهُما: «سَجِّلا كُلَّ شَيءٍ بِدِقّة، وسَتَجِدانِ سَلمى أفضَلَ مِنّي في قِراءةِ الخَرائِطِ النُّجومِيّة.» ثُمَّ لَبِسَ مِعطَفَهُ وخَرَجَ في البَردِ نَحوَ بَيتِ الشَّيخِ فارِس.

وَجَدَ الشَّيخَ فارِساً مُستَلقِياً في فِراشِه، عَيناهُ نِصفَ مُغلَقَتَين، ونَفَسُهُ يَتَقَطَّعُ كَورَقةٍ يَقلِبُها الرّيح. حينَ سَمِعَ صَوتَ نُعمان، حاوَلَ أن يَبتَسِم. قالَ بِصَوتٍ لا يَكادُ يُسمَع: «أخِيراً. كُنتُ أخشى أن تَبقى هُناكَ طَوالَ اللَّيل.» لَم يَقُلْ نُعمانُ إنَّهُ فَكَّرَ في ذلِكَ تَماماً.

جَلَسَ نُعمانُ قُربَ السَّرير، وأخَذَ يَصِفُ لَهُ السَّماءَ كَلِمةً كَلِمة: النُّجومَ الَّتي بَدَأَتْ تَتَجَمَّعُ، والأُفُقَ الَّذي سَيَظهَرُ فيهِ المُذَنَّبُ بَعدَ قَليل، وضِياءَهُ الشّاحِبَ كَذَنَبِ ثَعلَبٍ مِن ضَوء. أغمَضَ الشَّيخُ فارِسُ عَينَيهِ وهُوَ يَستَمِع، كَأَنَّهُ يَرى الوَصفَ أكثَرَ مِمّا رَآهُ الرِّجالُ بِتِلسكوباتِهِم.

قالَ الشَّيخُ فارِسُ فَجأة: «تَعرِفُ لِماذا بَنَيتُ ذلِكَ المِرصَدَ؟» هَزَّ نُعمانُ رَأسَهُ نافِياً، فَأكمَلَ الشَّيخُ: «ماتَتِ ابنَتي وهِيَ صَغيرة، قَبلَ أن تَرى نَجمةً واحِدةً بِوُضوح، لِأَنَّ عَينَيها كانَتا ضَعيفَتَين. قُلتُ في نَفسي: إن لَم تَستَطِع ابنَتي أن تَرى السَّماءَ بِعَينَيها، فَسَأبني مَكاناً يَراها فيهِ كُلُّ أطفالِ القَريةِ نِيابةً عَنها.» صَمَتَ نُعمانُ طَويلاً، وهُوَ يَفهَمُ الآنَ لِماذا كانَ الشَّيخُ يُصِرُّ دائِماً على تَعليمِ الأطفالِ أوَّلاً.

وفي الوَقتِ نَفسِه، في المِرصَد، ظَهَرَ المُذَنَّبُ فَجأةً عِندَ حافّةِ الأُفُق، خَيطاً رَفيعاً مِن ضَوءٍ باهِتٍ يَتَحَرَّكُ بِبُطءٍ لا يُدرِكُهُ إلّا مَن يَعرِفُ أينَ يَنظُر. صاحَ أحَدُ الباحِثَينِ فَرَحاً، لَكِنَّ سَلمى كانَتِ الأهدَأَ بَينَهُم: ضَبَطَتِ الكامِيرا بِيَدَينِ ثابِتَتَين، وسَجَّلَتِ الإحداثِيّاتِ في الدَّفتَرِ بِخَطٍّ واضِح، تَماماً كَما عَلَّمَها نُعمان.

وحينَ وَصَلَ نُعمانُ في وَصفِهِ إلى لَحظةِ ظُهورِ المُذَنَّبِ فِعلاً عِندَ الأُفُق، وكانَتِ السّاعةُ قَد تَجاوَزَتِ العاشِرة، ضَغَطَ الشَّيخُ فارِسُ على يَدِ نُعمانَ بِما تَبَقّى لَهُ مِن قُوّة. قالَ بِصَوتٍ يَكادُ يَكونُ ابتِسامة: «إذَنْ، رَأَيتُهُ أنا أيضاً.» أغمَضَ عَينَيهِ بَعدَها بِهُدوء، وأخَذَ نَفَساً طَويلاً وبَطيئاً، ونَاماً نَوماً هادِئاً لَم يَستَيقِظْ مِنهُ عِندَ الفَجر.

في الصَّباح، عادَ نُعمانُ إلى المِرصَدِ لِيَجِدَ الباحِثَينِ قَد أتَمّا كُلَّ شَيء: صُوَرَ المُذَنَّبِ واضِحة، والإحداثِيّاتِ مُسَجَّلةً بِدِقّةٍ لا تَشوبُها شائِبة. قالَ أحَدُ الباحِثَين: «سَنَذكُرُ في التَّقريرِ أنَّ الرَّصدَ الفِعلِيَّ قامَتْ بِهِ مُساعِدَتُكَ الشّابّة، ما دُمتَ قَد غادَرتَ قَبلَ الظُّهور.» ابتَسَمَ نُعمانُ ابتِسامةً لَم يَفهَمِ الباحِثانِ سَبَبَها تَماماً.

بَعدَ أيّام، وهُما يُرَتِّبانِ سِجِلّاتِ المِرصَدِ مَعاً، سَأَلَتْ سَلمى: «أُستاذ نُعمان، هَل تَظُنُّ أنَّ جَدّي رَأى المُذَنَّبَ حَقّاً؟» فَكَّرَ نُعمانُ طَويلاً قَبلَ أن يُجيب: «الضَّوءُ الَّذي نَراهُ في السَّماءِ يا سَلمى غادَرَ نَجمَهُ مُنذُ سَنَوات، وأحياناً مُنذُ قُرون، قَبلَ أن يَصِلَ إلى عُيونِنا. جَدُّكِ لَم يَرَ المُذَنَّبَ بِعَينَيه، لَكِنَّهُ رَأى الضَّوءَ الَّذي وَصَلَهُ عَبري، وهذا كُلُّ ما تَفعَلُهُ النُّجومُ أصلاً: تُرسِلُ ضَوءَها عَبرَ مَن يَحمِلُه.»

في السَّنةِ التّالِية، عُلِّقَتْ عِندَ بابِ المِرصَدِ لَوحةٌ صَغيرة: «مِرصَدُ الشَّيخِ فارِس، الَّذي عَلَّمَ قَريَتَهُ أنَّ السَّماءَ تَتَّسِعُ لِلجَميع.» وصارَ نُعمانُ يُكَرِّرُ لِكُلِّ تِلميذٍ جَديد، وسَلمى أوَّلُهُم، جُملةً واحِدة: «تَعَلَّمْ أنْ تَعرِفَ مَتى تَترُكُ التِّلسكوبَ.» ولَم يَفُتْهُ، مُنذُ تِلكَ اللَّيلة، رَصدٌ واحِدٌ كانَ يَستَحِقُّ أن يَترُكَهُ لِغَيرِه، لَكِنَّهُ أيضاً لَم يَندَمْ يَوماً على اللَّيلةِ الَّتي تَرَكَ فيها التِّلسكوبَ لِيَذهَبَ لِيَصِفَ السَّماءَ لِرَجُلٍ لَم يَعُدْ يَستَطيعُ رُؤيَتَها.

OQOU STARTER LIBRARY

This story is from oqou's free starter library, graded at C1 for Arabic readers.

Read it interactively in the oqou app: tap any word for an instant translation, listen with natural narration, and carry your saved vocabulary into every story you read next.

oqou.app

Download oqou on the App Store

oqou